دراسة القرآن بطريقة ستيلستيكية

Syihabuddin Q.*

Abstract

Many people admire and interested in the Qur'ān, but they don't know the reason. According to the author, there is an internal factor that make people interested in the Qur'ān not mainly based on the dogmatic reason. The present paper discusses the so called "internal factor" which is stylistic or *uslūb* (Arabic). This approach is quite different from *balāghah* and literary criticism. Stylistics discusses the characteristics of language without any judgement. In this context, the stylistical approach to the Qur'ān is to analyse the characteristics of language used by the Qur'ān.

Abstrak

Banyak orang kagum dan tertarik dengan al-Qur'an tanpa dapat menerangkan mengapa demikian. Sebenarnya ada faktor internal dalam al-Qur'an itu sendiri yang menyebabkan orang kagum dan tertarik dengan al-Qur'an, bukan hanya karena dogma teologis.

Tulisan ini menganalisis aspek internal tersebut dengan metode stilistika yang dalam literatur Arab disebut *uslub*, mencakup pembahasan tentang fonologi, preferensi penggunaan lafal dan kalimat, juga deviasi yakni penyimpangan dari kaidah-kaidah yang konvensional.

Berbeda dengan *balagah* dan kritik sastera, stilistika membahas karakteristik kebahasaan dari suatu karya tanpa ada unsur penilaian atau "penghakiman". *Balagah* menilai kesesuaian suatu karya dengan kaidah-kaidahnya yang sudah baku, sedangkan kritik sastera "menghakimi" dan mengungkapkan kembali suatu karya. Dengan demikian, menganalisis al-Qur'an dengan metode stilistika adalah menganalisis karakteristik kebahasaannya.

المقدمة

قال Geoffrey Neil Leech إن ستيلستيك (Stylistic) علم من علوم اللغة يبحث عن ستيل (Style). وأما ستيل فهو استخدام لغة في مناسبة معينة وغرض معين.[١] وعند Gorys Keraf أن ستيل (Style) من ستيلوس (Stilus)، معناه آلة الكتابة التي تستعمل على صفحات الشمعة أو المهارة من استعمال تلك الآلة التى تؤثّر على وضوح الكتابة وعدمه. ثم تطور هذا المعنى يوما بعد يوم حيث نفهمه فى يومنا الحاضر كمهارة الكتابة أو استعمال الألفاظ الجميلة.[٢] وهذا الاصطلاح معروف فى اللغة العربية بعلم الأسلوب. ووجدنا فى قاموس اللغة أن ستيلستيك علم يبحث عن اللغة ويستعمل في علم أدبي وهو علم تقابلي بين علم اللغة وعلم الأدب.[٣]

اعتماداً على التعاريف المذكورة نفهم أن لستيلستيك موضوعين رئيسيين: الفن واللغة. الفن يتعلق بالطريقة الخاصة التي استخدمها الكاتب أو المتكلم في عمله الأدبي. وأما اللغة فتتعلق بعلم أساسي لستيلستيك.

ومن الجدير بالذكر أن ستيلستيك (Stylistic) يبحث عن كل ظواهر اللغة ابتداء من علم الصوت (Fonology) حتى علم الدلالة (Semantic).[٤] ولكن لكيلا يتوسع البحث حدد علماء اللغة على أمور معينة، وهي الاختيار في بنية الجملة (Structure of Centence)، والبحث عن الانحراف عن القواعد النحوية والصرفية في العمل الأدبي المعين.[٥]

لأجل ذلك موضوع بحث ستيلستيك (Stylistic) يشتمل على:

١- علم الصوت (Fonology)

٢- اختيار اللفظ (Preferention of Word)

٣- اختيار الجملة (Preferention of Structure)

٤- الانحراف (Deviation)

الفرق بين ستيلستيك والبلاغة والنقد الأدبي

نعم، هناك تشابه بينه وبين البلاغة في وجوب استعمال الألفاظ أو الجمل المطابقة للموقف أو مقتضى الحال، ولكن إذا بحثنا بإمعان هناك فروق كثيرة، منها:

١- إن علم البلاغة علم لغوي قديم وأما علم الأسلوب فهو علم لغوي حديث، كما عرفنا أن العلوم اللغوية القديمة تنظر إلى اللغة على أنها شيء ثابت، في حين أن العلوم اللغوية الحديثة تسجل ما يطرأ عليها من تغير وتطور. وعلى الرغم من أن علم البلاغة يلاحظ اختلاف طرق التعبير تبعا لاختلاف مقتضى الحال، فإن هذه الاختلافات لا تخرج عن الإمكانيات الثابتة للغة العربية. هل يستخدم "التقديم والتأخير" مثلا بنفس الكثرة في النثر كما يستخدم في القرن الثاني أو الثالث؟ وكيف تطور استخدام السجع من العصر الجاهلي حتى القرن العاشر ؟ ولماذا هجره الكاتب في العصر الحديث ؟ هذه كلها مسائل لا تتعرّضن لها البلاغة، لأنها تتناول التقديم والتأخير والسجع وغيرها منفصلة عن الزمن والبيئة. وعلم الأسلوب كسائر العلوم اللغوية الحديثة، يدرس الظواهر اللغوية، أعني الجانب الذي يخصه منها -بطريقتين: طريقة أفقية (Horizontal Methode)، تصور علاقة هذه الظواهر بعضها ببعض في زمن واحد، وطريقة رأسية (Vertical Methode)، تمثل تطور كل ظاهرة من هذه الظواهر على مر العصور.

٢- القوانين التي يصل إليها علم البلاغة قوانين مطلقة، لا يلحقها التغيير من عصر إلى عصر أو بين بيئة وبيئة، أو شخص وشخص. فمن الضروري أن تراعى دائما، كما تراعى قوانين النحو. حقا، إن القوانين البلاغية تقوم على الاختيار بين عدة تراكيب نحوية صحيحة، ولكن هذا الاختيار نفسه محكومة بقوانين، تجعل العدول عن التراكيب المناسبة طبقا لهذه القوانين خطأ بلاغيا. ولذلك قال البلاغيون عن

المعاني إنه علم يحترز به التعقيد المعنوي، والتعقيد المعنوي عندهم يقابل التعقيد اللفظي الذي هو خطأ في ترتيب الألفاظ. أما علم الأسلوب فإنه إذ يسجل الظواهر ويعترف بما يصيبها من تغيير، ويحرص فقط على بيان دلالتها في نظر قائليها وسامعيها أو قارئيها، فطبيعي ألا يتحدث عن صحة أو خطأ. وتعتمد نظرية الأسلوب كلها على فكرة "الاختيار" (Preferention) وفكرة "الانحراف"(Deviation). وإذن فنحن عندما نقرأ نصا ما قراءة أسلوبية، نحاول أن نميز الاختيارات والانحرافات فيه. لأنها هي المفاتيح التي تمكننا من الولوج إلى العالم الشعوري الكامن وراء العطفة الأدبية.

٣- أنشأ البلاغيون علمهم في ظل سيادة المنطق على التفكير العلمي -حتى في الموضوعات الأدبية - ولخدمة الخطابة أكثر من خدمة الفن الشعري. ولذلك فإن أهم عنصر في ظروف القول عندهم هو الحالة العقلية للمخاطب. وإن كانت المادة الأدبية قد فرضت عليهم، في كثير من الأحيان، الاهتمام بالحالة الوجدانية للمخاطب والمتكلم جميعا. أما علم الأسلوب، فقد نشأ في هذا العصر الذي دخل فيه علم النفس إلى شتى مجالات الحياة. وقد عنى علماء النفس المحدثون بالجانب الوجداني من الإنسان أكثر مما عنوا بالجانب العقلي.[٦]

علاوة على ذلك، وجدنا التشابه بينه وبين النقد الأدبي في موضوع بحثهما، هو حول العمل الأدبي شعرا كان أو نثرا، على الرغم من أن هناك فرقا دقيقا. فستيلستيك يبحث عن العمل الأدبي من حيث ظواهره البارزة، مثل علم الصوت، واختيار الألفاظ، واختيار الجمل، وغيرها، بينما يبحث النقد الأدبي عن العمل الأدبي من نواحيه البارزة والباطنة.[٧]

قال أندري هارجانا (Andre Hardjana): إن النقد الأدبي يشتمل على ثلاثة أمور، تاريخ وإعادة التعبير والتحكيم. فالنقد التاريخي يعين معرفة حقيقة تعبير العمل

الأدبي وتحليله في سياقه التاريخى، وإعادة التعبير هي إعادة تأليف العمل الأدبي من جديد بتعبير الناقد الخاص. وأما التحكيم فيعمل عمل تعيين القيم للعمل الأدبي.[٨] فلذلك كلاهما موضوع البحث الخاص لهما.

أسلوب القرآن

بعد أن بينا تعريف ستيلستيك والفرق بينه وبين البلاغة والنقد الأدبي، أمامنا سؤال أخر: ما المراد بستيلستيك (أسلوب) القرآن ؟

طبعا، أن ستيلستيك (أسلوب) القرآن هو الأسلوب الذي موضوع بحثه القرآن، من ناحية صوته، واختيار صوته، واختيار الألفاظ والجمل وانحرافه عن القواعد اللغوية المعهودة.

من الجدير بالذكر أن ما سبق له بحث عن أسس هذا العلم، ولكن قد تم بحثه في القرن الثالث الهجري مع أنه في نطاق علم البلاغة كما فعله أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (٢٩٦-٣٨٦ هـ.) في كتابه بيان إعجاز القرآن، وأبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (المتوفى سنة ٤٧١ هـ.) في كتابه الرسالة الشافية، وأبو بكر محمد الطيب الباقلاني (المتوفى سنة ٤٠٣ هـ.) في كتابه إعجاز القرآن.

بحث الرماني عن اختيار الجمل في القرآن، وبحث الخطابي عن اختيار الألفاظ في القرآن، وقارن الجرجاني بين القرآن وأشعار العرب، وبحث الباقلاني عن تكرار الصوائت (Vowels) في أواخر الآيات القرآنية، ولكنهم ضم هذه البحوث إلى علم يسمى ببلاغة القرآن.

و في القرن العشرين كتب محمد عبد العظيم الزرقاني كتاب مناهل العرفلن فى علوم القرآن، فيه باب خاص لأسلوب القرآن، وجعله علما من علوم القرآن مع أن بحثه لم يتبع الطريقة الستيلستيكية الموجودة فى عصرنا الحاضر.

خصائص ستيلستيك القرآن

أولا- من ناحية علم الصوت

علم الصوت هو علم اللغة الذي يبحث عن أصوات اللغة. ويقسم اللغويون المحدثون أصوات اللغة إلى قسمين رئيسيين : صوامت (Consonants) وصوائت (Vowels). فالصفة الصوتية الجامعة للقسم الأول أن مجرى الهواء يعترض في حالة النطق بالأصوات الصوامت اعتراضا كليا أو جزئيا. أما الصفة الصوتية الجامعة للقسم الثاني فهي أن الهواء يندفع حال النطق بالصوائت في مجرى مستمر خلال الحلق والفم والأنف معهما أحيانا دون أن يكون ثمة عائق يعترض مجرى الهواء اعتراضا كليا أو جزئيا.[٩]

وتنقسم الصوامت في اللغة العربية إلى سبعة أقسام:

١- الصوامت الانفجارية (Plosives)

وتتكون بأن يحبس مجرى الهواء الخارج من الرئتين حبسا تاما في موضع من المواضع. وينتج عن هذا الحبس أو الوقف أن يضغط الهواء ثم يطلق سراح المجرى الهوائي فجأة، فيندفع الهواء محدثا صوتا انفجاريا. والصوامت الانفجارية في اللغة العربية الفصحى هي الباء والتاء والطاء والضاد والكاف والقاف وهمزة القطع.

٢- الصوامت الغنائية أو الأنفية (Nasal)

وتتكون بأن يحبس الهواء حبسا تاما في موضع من الفم، ولكن يخفض الحنك اللين فيتمكن الهواء من النفاذ عن طريق الأنف، ومن أمثال الصوامت الفنائية: الميم والنون.

٣- الصوامت المنحرفة (Lateral)

وتتكون بوضع عقبة في وسط المجرى الهوائي مع ترك منفذ للهواء عن طريق أحد جانبي العقبة، أو عن جانبيها. ومن هنا كانت تسميتها بالمنحرفة او الجانبية. ومن أمثلتها : اللام

٤- الصوامت المكررة (Rolled)

وتتكون نتيجة لطرقات سريعة متتابعة من عضو مرن مثل طرف اللسان، كما في الراء.

٥- الصوامت الاحتكاكية (Fricative)

وتتكون بأن يضيق مجرى الهواء الخارج من الرئتين في موضع من المواضع بحيث يحدث الهواء في خروجه احتكاكا مسموعا. والصوامت العربية التي يصدق علينا هذا الوصف هي : الفاء والثاء والسين والصاد والشين والخاء والهاء، وكلها مهموسة، والذال والظاء والزاي والغين والعين، وهي كلها مجهورة.

٦- الصوامت الانفجارية- الاحتكاكية أو المركبة

وهي نوع من الصوامت الانفجارية يحدث في تكوينها أن يتبع إطلاق الانفجاري مباشرة بالاحتكاكي المقابل له، أي بالاحتكاكي الذي يتكون فيه الانفجاري، وهذا الصوت الاحتكاكي الذي يعد جزءا جوهريا من الانفجار الاحتكاكي يسمع لأن الأعضاء المشتركة في نطق الانفجاري تنفصل ببطء. وعند اللغة العربية منها صوت واحد، وهو الجيم الفصيح كما نعرفه اليوم.

٧- أشباه الصوائت (Semi)

وتتكون من صائت ضيق (Close Vowels) مع صائت آخر أشد بروزا (Prominence)، ولا يدوم وضع الصائت الأول زمنا ملحوظا، والذي يدعو إلى إدراج هذه الأصوات مع الصوامت هو ما تتميز به من انتقال سريع مع ضعف في قوة النفس أو الزفير. وفي العربية منها صوتان ينطبق عليهما هذا الوصف، هما

الواو مرادا بها واو (وجد) وأمثالها، والياء مرادا بها ياء (يزن) وأشباهها.

أما الصوائت في اللغة العربية الفصيحة فنوعان:

١- صوائت قصيرة (Short Vowels)، وهي الفتحة والكسرة والضمة.

٢- صوائت طويلة (Long Vowels)، وهي الألف الممدودة في مثل قال، والياء الممدودة في مثل بيع، والواو الممدودة في مثل روح.[١٠]

وبعد أن نعرف علم الصوت نظريا، فأمامنا سؤال كيف نطبقه في دراسة القرآن الكريم؟

قال الزرقاني في كتابه مناهل العرفان في علوم القرآن:

ونريد بتناسق القرآن الصوتي اتساق القرآن وانتلافه في حركاته وسكناته ومداته وغناته واتصالاته وسكتاته اتساقا عجيبا وائتلافا رائعا، يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور. وبيان ذلك أن من ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية وهي مرسلة على وجه السذاجة مجردة من هيكل الحروف والكلمات كان يكون السامع بعيدا عن القارئ المجود، بحيث لا تبلغ إلى سمعه الحروف والكلمات متميزا بعضها عن بعض.[١١]

تناسق الأصوات في أواخر الآيات القرآنية أحسن تنسيقا من الأصوات الموجودة في أواخر الشعر العربي، لأن القوافي في الآيات القرآنية متنوعة حتى لا يمل استماعه. انظر مثلا قوله تعالى في سورة الكهف (٩ - ١٦):

أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا * إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا* فضربنا على أذانهم في الكهف سنين عددا * ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا * نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنّهم فتية أمنوا بربهم وزدناهم هدى*

وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا * هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه ألهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا * وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا*

في أواخر الآيات المذكورة نجد صوائت "a" مقرونة بالصوامت المختلفة حتى تصير الأصوات المختلفة، وهي "با" و "دا" و "طا" و "فا".

وفي سورة أخرى نجد هذا التناسق مقرونة بالصوائت المتنوعة كأن فيها انحراف من النغم الموجود. انظر مثلا في سورة ص (٣٨: ٧١-٨٨). نجد في أواخر تلك الآيات صوائت "i" مع أن في آيات ٧٣، و ٧٩، و ٨١، و٨٤ نجد صوائت "u" مقرونة بالصوامت المختلفة حتى يظهر فيها صوت تين ودين وعون ورين ولين وسون وغير ذلك.

إذا بحثنا تناسق الأصوات في أواخر الآيات، سوى الأنواع المذكورة، فيمكن أن نقسمه إلى ثلاثة أقسام، وهي:

١- تكرار صوت الحروف المتساوية، كتكرار حرف الراء والهاء في سورة القمر (٥٤: ٣٣-٤١)، والإنسان (٧٦: ١-١٣)، وعبس (٨٠: ١٧ - ٢٣)، والشمس (٩١: ١١-١٥).

٢- تكرار صوت الألفاظ كتكرار لفظ دكا دكا، وصفا صفا، وعقبة الموجودة فىسورة الطارق (٨٦: ١-٢، ١٥-١٦)، والفجر (٨٩: ٢١-٢٢)، والبلد (٩٠: ١١-١٢).

٣- تكرار صوت الألفاظ المتقاربة، مثل: طمست وفرجت ونسفت وأقتت وأجلت، غرقا ونشطا ووسبحا وسبقا وأمرا، والراجفة والرادفة وواجفة،

وسيّرت وعطّلت وسجّرت في سورة المرسلات (٧٧: ٨ - ١٢)، والنازعات (٧٩: ١-٥، ٦-١٠)، والتكوير (٨١: ٣-١٢).

فمن العلماء من يبحث عن علاقة الصوت بالمعنى الخليل بن أحمد، وتبعه سبويه وأبو الفتاح عثمان الجني، ويقرر السيوطي أن أهل اللغة العربية كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني،[١٢] على الرغم من إنكار بنوتي سوجيمان (Panuti Sudjiman) على وجود هذه العلاقة.

قال الجني إن المصادر الرباعية الضعيفة تأتي للتكرير، نحو الزعزعة، والقلقلة، والصلصلة، والقعقعة، والصعصعة، والجرجرة، وقال إن تكرير العين دليل على تكرير الفعل، مثل: كسّر وقطّع وفتّح وغلّق.[١٣] ورأى الاستاذ سليم الخوري أن حرف الفاء الواقع في صدر اللفظ يدلّ على الإبانة والوضوح، مثل: فتح وفرح وفلق وفجر وفسر، وحرف الضاد حضا بالشؤم يسم جبين كل لفظة بمكرهة لا يكاد يسلم منها اسم أو فعل، مثل: ضجر، ضرّ، ضير، ضوضاء، ضياع، ضلال، ضنك ضيق وغير ذلك.

وإذا لاحظنا اللغة القرآنية متمثلا قول ابن جنى وسليم الخوري وجدنا علاقة الصوت المتكرر بالمعنى ونبينها فيما يلي:

١- تكرار الصوت المفرد

تتخذ اللغة القرآنية أحيانا من الصوت المتكرر وسيلة بلاغية لتصوير الموقف وتجسيمه الإيحاء بما يدل عليه معتمدة في ذلك على ما تتميز به بعض الألفاظ من خصائص صوتية وما تشيعه بجرسه الصوتي من نغم يسهم في إبراز المعنى المراد.

أنصت معي إلى الجرس الصوتي لحرف السين الذي يتكرر في هذه السورة:

قل أعوذ برب الناس ملك الناس* إله الناس* من شر الوسواس الخناس* الذي يوسوس في صدور الناس* من الجنة والناس*[١٤]*

فحرف السين الذي يتكرر في هذه السورة صوت صامت مهموس لثوي

احتكاكي لا يستطيع الإنسان أن ينطق به وهو مفتوح الفم، بل إنه ليحدث في نطق كثيرين له أن تلتقى الاسنان السفلى بالأسنان العليا. وقد اختير هذا الصوت بصفة خاصة لإبراز هذه الوسوسة التي يخافت بها أهل الجرائم والمكائد، وما يلقيه الشيطان في روع الإنسان ليزين له بذلك ارتكاب المعاصي، وهو أدلّ بجرسه الصوتي الاحتكاكي الهامس على تصوير حالة الهمس الخفي.

٢- تكرار أصوات سابقة

لا يقتصر الأسلوب القرآني على تكرار الصوت المفرد للاستعانة بجرسه في تصوير موقف ما تصويرا فنيا.

استمع إلى تكرار الأصوات فيما يأتي من تعبير قرآني بليغ، يقول جلّ شأنه: *كلا إذا دكّت الأرض دكا دكا*

ألاترى تكرار هذا (الدك) أكثر من مجرد التوكيد ؟ أم ترى في توالي الدك تكراره تصويرا حسيا مجسما لدك أجزاء الأرض جزءا جزءا، و تكرار ذلك مرة بعد مرة حتى تفنى، ثم اختيار الدك دون غيره من الأفعال يشعرك بأصواته الانفجارية التي يتحبس عند النطق بها الهواء انحباسا تاما. ثم لا يكاد يناسب حتى ينحبس في صوت انفجاري آخر. ألا يشعرك هذا بالإحاطة بالأرض والإطباق عليها حتى لا يفلت منها جزء من الأجزاء حال هذا الدك المتوالي وهذا الانتقال من صوت الدال ذلك الصوت المجهور الصامت الذي ينحبس معه الهواء فترة من الزمن عند أصول الثنايا العليا، ثم يترك فجأة ليعود إلى الانحباس مرة اخر عند أقصى اللسان وأقصى الحنك اللين للنطق بالكاف، ألا يشعرك هذا بتكرار الضغط على الأرض حتى لا يبقى منها شيئ.[١٥]

ثانيا – اختيار الألفاظ في القرآن

عدد أنواع الألفاظ في القرآن كعدد الألفاظ في اللغة العربية، فيحسن بنـــا أن نحددها كما يلي:

١- استخدام الألفاظ المتقاربة في المعنى

٢- استخدام اللفظ المشترك (Homonyme)

٣- استخدام الألفاظ اللائقة لموقفها.

١- استخدام الألفاظ المتقاربة في المعنى

في هذا الصدد لا نستخدم اصطلاح الترادف (Sinonyme)، هذا لكي لا يزعـــم الناس بأنه إطلاق عدة كلمات على مدلول واحد.

نعم، قد اختلف علماء اللغة عن هذه القضية. قال إميـــل بديـــع يعقـــوب إن الترادف هو ما اختلف لفظه واتفق معناه. وهذا واقع فى اللغة العربية الفصحـــى التي كانت مشتركة بين قبائل العرب في الجاهلية.[١٦] وقال أبو هلال العســـكري إن كون اختلاف الألفاظ في لغة واحدة يوجب اختلاف المعاني، فـــإذا جـــرى اسمان على معنى من المعاني أو عين من الأعيان في لغة واحدة، فإن كل واحـــد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلا لكان الثاني فضلا لا يحتاج إليه.[١٧]

كيف كانت ألفاظ القرآن من هذه القضية ؟ قالت بنت الشاطئ: بعد التتبـــع الاستقرائي لألفاظ القرآن في سياقها نشهد أنه يستعمل اللفظ بدلالة معينـــة لا يؤديها لفظ آخر، في المعنى الذي تحشد له المعاجم وكتب التفسير عددا قـــلّ أو كثر من الألفاظ.

نأخذ مثلا لفظي الرؤيا والحلم، يزعم الناس أنهما مترادفان، ولكن بعـــد بحـــث عميق وجدنا أن بينهما فرقا. حيث استعمل القرآن الأحلام ثلاث مرات يشـــهد

سياقها بأنها الأضغاث المهوشة والهواجس المختلطة وتأتي في المواضع الثلاثة بصيغة الجمع دلالة على الخلط والتهوش لا يتميز فيه حلم من آخر. كما قال تعالى في جدل المشركين:

بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون. (الأنبياء :٥)

وأما الرؤيا فجاءت في القرآن سبع مرات، كلها في الرؤيا الصادقة، وهو لا يستعملها إلا بصيغة المفرد، دلالة على التمييز والوضوح والصفاء.[١٨] قال تعالى:

وناديناه أن يا إبراهيم، قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. (*الصافات: ١٠٤-١٠٥*)

٢- استخدام اللفظ المشترك

وهو كل كلمة لها عدة معان حقيقية غير مجازية أو هو اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل اللغة. واختلف الباحثون في مسألة ورود المشترك اللفظي في اللغة العربية. وأنكره فريق منهم مؤوّلي أمثلته تأويلا يخرجها من بابه كأن يجعل إطلاق اللفظ في أحد معانيه حقيقة وفي المعاني الأخرى مجازا.[١٩]

ولقد استعمل القرآن الكريم والسنة المطهرة ألفاظا مشتركة. فكان ذلك سببا من أسباب الاختلاف بين الفقهاء في كثير من الأحكام. كلفظ "قروء" في قوله تعالى:

والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء. (*البقرة: ٢٢٨*)

ذهب الشافعي ومالك وأحمد في أحد قوليه إلى أن القرء معناها الطهر بأدلتهم المأخوذة من القرآن والسنة واللغة. وذهب ابى حنيفة إلى أن القرء هى الحيض وأيّد أيضا هذا الرأي بأدلّته المأخوذة من القرآن والسنة واللغة.[٢٠]

وإذا طالعنا الآيات القرآنية المتعلقة بالأحكام الشرعية وجدناها مجالا لاختلاف الأفكار والآراء حتى يمكن أن نأخذ منها الرأي اللائق بمكاننا وزماننا.

٣- استخدام الألفاظ اللائقة لموقفها

هو قصد القرآن في اللفظ مع وفائه في المعنى وبعبارة أخرى أن في كل جمل القرآن نجد بيانا قاصدا مقدرا على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلاهية دون أن يزيد اللفظ على المعنى أو يقصر عن الوفاء بحاجة الخلق من هداية الخالق. قال تعالى:

كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير.

قال الزرقاني: إذا أردت أن تلتمس هذه الخاصة فافتح المصحف الشريف مرة واعمد إلى جملة من كتاب الله واحصها عددا، خذ بعد ذلك الكلمات من أي كلام آخر وقارن بين الحملتين ووازن بين الكلامين وانظر أيهما أملأ بالمعنى مع القصد في الألفاظ.[٢١] نأخذ مثلا قوله تعالى في تصوير عجز وضعف زكريا عليه السلام: "وهن العظم مني" و لم يقل مثلا "وهن اللحم مني". إن العظم معلق اللحم وإذا وهن العظم فكان اللحم أشدّ, و لم يكن عكسه أي لم يدلّ ضعف اللحم على العظيم. ثم قال تعالى: "واشتعل الرأس شيبا" و لم يقل مثلا "واشتعل الشيب في الرأس". الجملة الأولى تفيد معنى لمعان الشيب في الرأس، الذي هو أصل المعنى، الشمول، وأنه قد شاع فيه وأخذه من نواحيه وأنه قد استقر به وعمت جملته حتى لم يبق من السواد شيء أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به. وأما الجملة الثانية فتفيد وقوع الشيب في بعض جوانب الرأس حتى لا تتناسب مع الجملة التي قيلها (وهن العظم مني). ووازن ذلك بـ"اشتعل البيت نارا" فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول، وأنها قد استولت عليه وأخذت في طرفيه ووسطه. وتقول "اشتعلت النار في البيت" فلا تفيد ذلك، بل يقتضي أكثر

من وقوعها فيه وأصابتها جانبا منه.

تلك هي الطريقة الاولى، وأما الطريقة الثانية فهي البحث عن أسرار ذكر أوحذف لفظ في آيتين متشابهتين أو أكثر. هذه الطريقة قد سلكها الخطيب الإسكافي في كتابه درة التنزيل وغرة التأويل، نأخذ منه قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: "ولما بلغ أشده أتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين" (يوسف:[٢١]، وقال في قصة موسى عليه السلام: "ولما بلغ أشده واستوى أتيناه حكما وعلما"(القصص:١٤). ذكر الله لفظ استوى في قصة موسى و لم يذكره في قصة يوسف مع أن الجملتين السابقتين لهما على حدة سواء. ولكن إذا بحثنا بشئ من العمق وجدنا أن معنى لفظ استوى هو أدرك واستوت لحيته، وقيل الاستواء أن يبلغ أربعين سنة". وهذا المعنى يتناسب مع حالة موسى حيث أوحى الله إليه بعد أن استأجره شعيب عليه السلام ومضت سنوات إجارته وسار بأهله، فهناك أتاه ما أتاه من كرامة الله، وقيل إنه بعد الأربعين، فلم ينتظر بيوسف في إيتاء الحكم والعلم والتشريف بالوحي ما انتظر موسى، أما يوسف عليهم السلام فقد أوحى إليه ما طرصه اخوته فى الجب.[٢٢]

ثالثا- اختيار الجملة

أنواع الجملة في القرآن كثيرة ونذكر نوعين منها:

١- الجملة بدون فاعلها

على الأقل تتكون الجملة من فعل وفاعله، ولكن في بعض الأحيان قد لا يذكر الفاعل لسبب ما. ونجد هذا النوع في بعض الآيات القرآنية، مثل قوله تعالى:

*إذا الشمس كوّرت * وإذا النجوم انكدرت * وإذا الجبال سيرت* وإذا العشار عطلت * وإذا الوحوش حشرت * وإذا البحار سجّرت * وإذا النفوس زوجت*

* *وإذا الموءودة سئلت* * *باي ذنب قتلت* * (التكوير: ١-٩).

يقول البلاغيون في سبب حذف الفاعل: "إنه يحذف للعلم أو للجهل أو الخوف منه أو عليه". ونعرض هذه الوجوه على البيان القرآني، فيأبى أن يكون حذف الفاعل، سبحانه، لأحداث القيامة للخوف عليه أو الجهل به.

يقول الأسلوبيون: إن أساليب البناء للمجهول والمطاوعة والإسناد المجازي تتلقى جميعا في الاستغناء عن ذكر الفاعل، فبناء الفعل للمجهول فيه تركيز الاهتمام على الحدث بصرف النظر عن محدثه، والمطاوعة فيها بيان للطواعية التي يتم بها الحدث تلقائيا أو على وجه التسخير، وكأنه ليس في حاجة إلى فاعل، والإسناد المجازي يعطي المسند إليه فاعلية محققة يستغني بها عن ذكر الفاعل الأصلي.[٢٣]

٢- تكرار الجملة

المراد بتكرار الجملة في القرآن ليس بتكرار كلي ولكن جزئي، وهو التكرار بجو مختلف، مثل قوله تعالى في سورة البقرة: ١٢٦: "وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا"،وقال فى سورة إبراهم : ٣٥: "واذ قال إبراهم رب اجعل هذا البلد آمنا" كأن الاية الأولى هى الاية الثانية، ولكن اذا بحثا بشئ من العميق وجدنا الفرق فى هذا التكرار. ان الدعوة الأولى وقعت و لم يكن المكان قد جعل بلدا، فكأنه قال اجعل هذا الوادى بلدا آمنا. لأن الله تعالى حكى عنه أنه قال: "ربنا إني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم" بعد قوله "اجعل هذا الوادي بلدا"، ووجه الكلام فيه تنكير الذي هو مفعول ثان وهذا مفعول أول. والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلدا، فكأنه قال "اجعل هذا المكان الذي صيرته كما أردت ومصرته كما سألت، ذا أمن على من أوى إليه"، فيكون البلد على هذا عطف بيان على مذهب سبويه، وآمنا مفعولا ثانيا، فعرف حين عرف بالبلدية، ونكر حيث كان مكانا من الأمكنة غير مشهورة

بالتمييز عنها بخصوصية من عمارة وسكنى الناس.[٢٤]

رابعا – الانحراف (Deviation)

في العمل الأدبي قاعدتان أساسيتان: قاعدة التوازن وقاعدة الانحراف. والاختيار بالقاعدة من القواعد يتعلق بقصد الكاتب في عمل أدبه. فإذا أراد التناسق والتوازن اختار قاعدة التوازن، وإذا أراد شيئا جديدا غير ممل فاختار قاعدة الانحراف.

قد يختار القرآن الانحراف كما قد يختار التوازن. والمراد بالانحراف هنا الانحراف عن البنية (النحو والصرف). قال الله تعالى في سورة الشعراء: ٧٨-٨٢:

الذي خلقني فهو يهدين * *والذي هو يطعمني ويسقين* * *وإذا مرضت فهو يشفين* * *والذي يميتني ثم يحيين* * *والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين* *

بدأت في آية ٧٨ و ٧٩ بلفظ "الذي"، ثم بدأت في ٨٠ بلفظ "وإذا" ثم استأنفت في آية ٨١ و ٨٢ بلفظ "الذي"، إضافة إلى ذلك أن الفاعل في ٧٨ و ٧٩ و ٨١ و ٨٢ هو "الله"، والفاعل في ٨٠ المتكلم (أنا). وإذا قرأنا هذه الجملة بأسلوب قبلها أو بعدها فتقول "والذي أمرضني". ونجد الانحراف أيضا في ذكر ضمير "هو" قبل الألفاظ "يهدين، ويطعمني، ويسقين، ويشفين"، ولم يذكر قبل اللفظين "يميتني ويحيين".

وأما سر الأسلوب في ذكر فاعل "الله" في ٧٨ و ٧٩ و ٨١ و ٨٢ وذكر فاعل متكلم (ت) أي إبراهيم في ٨٠ فهو تعليم الأدب، منه تسند الحسنات (خلق ويهدي ويطعم ويسقي ويميت ويحيي) إلى الله وتسند السيئة (مرضت) إلى غيره.

وأما سر الأسلوب في ذكر لفظ "هو" في قوله والذي هو يطعمني ويسقين" وقوله " فهو يشفين" وإخلاء قوله "والذي يميتني" فهو أن ذكر "هو" هناك توكيد لمعنى الكلام وتخصيصا للفعل به دون غيره، واحتاج ذكر الإطعام والشفاء إلى هذا التوكيد لأنهما مما يدعى الخلق فعله، فيقال فلان يطعم فلانا، والطبيب يداوي ويسبب الشفاء.

فكان إضافة هذين الفعلين إلى الله تعالى محتاجة إلى لفظ التوكيد لما يتوهم من تضيفه إلى المخلوق إلى ما لا يحتاج إليه إضافة الموت والحياة، لأن أحدا لا يدعى فعلهما كما كان يدعى الأولين. [٢٥]

ولأثر من هذا الأسلوب تنوع البنية (Structure) حتى تشعر بتجدد الجوّ.

الاختتام

وإذا كان لي كلمة أقولها وأنا في ختام هذا البحث، فليست هي إلا أن أعود فألفت النظر إلى إمكانية دراسة القرآن بطريقة لغوية، منها الطريقة الستيلستيكية التي هي الاختيار في الصوت واللفظ والجملة والانحراف. والدراسة عن ستيلستيك القرآن هي الدراسة عن خصائصه وأسراره اللغوية.

هذا آخر ما تكلمنا عليه، والحمد لله وحده، وصلوات الله وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الهوامش

١) Geoffrey Neil Leech, **Style in Fiction**, Longman, London, 1981, hlm.10

٢) Gorris Keraf,

٣) **Harimurti Kridalaksana, Kamus Linguistik**, Jakarta: PT. Gramedia, 1983, hlm. 112.

٤) شكري محمد عياد، *مدخل إلى علم الأسلوب*، رياض: دار العلوم، ١٩٨٢، ص ٤٨.

٥) **Panuti Sudjiman, Bunga Rampai Stilistika**, Jakarta: Pustaka Utama Grafiti, 1993, hlm. 14.

٦) شكري محمد عياد، *مدخل إلى علم الأسلوب*، ص ٤٤-٤٧.

٧) المرجع السابق ص ٣٥.

٨) Andre Hardjana, **Kritik Sastra Sebuah Pengantar**, Jakarta: PT. Gramedia Pustaka Utama, 1991, hlm. 26, 227.

٩) Harimurti Kridalaksana, **Kamus Linguistik, hlm. 45**

١٠) محمود أحمد نحلة، ***لغة القرآن الكريم في جزء عم***، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١، ص ٣٣٢-٣٣٤.

١١) محمد عبد العظيم الزرقاني، ***مناهل العرفان في علوم القرآن***،الجزء الثاني، القاهرة: عيسى البابي الحلبي وشركائه، ص ٢٠٥.

١٢) انظر محمود أحمد نحلة، ***لغة القرآن الكريم في جزء عم***، ص ٣٣٢ و
Panuti Sudjiman, Bunga Rampai Stilistika, hlm. 9.

١٣) أبو الفتاح عثمان الحنبي، ***الخصائص***، الجزء الثاني، ص ١٥٧.

١٤)سورة الناس: ١ – ٦.

١٥) محمود أحمد نحلة، ***لغة القرآن الكريم في جزء عم***، ص ٣٤٦ – ٣٥٠.

١٦) إميل بديع يعقوب، ***فقه اللغة العربية وخصائصها***، بيروت: دار الثقافة الإسلامية، ص ١٧٦.

١٧) عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، ***الإعجاز البياني في القرآن***، القاهرة: دار المعارف، ص ٢١٣.

١٨) المرجع السابق، ص ٢١٥.

١٩) إميل بديع يعقوب، ***فقه اللغة العربية وخصائصها***، ص ١٧٨.

٢٠) مصطفى سعيد الخن، ***أثر الاختلاف في القواعد الأصولية من اختلاف الفقهاء***، القاهرة: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٢، ص ٧٠.

٢١) محمد عبد العظيم الزرقاني، ***مناهل العرفان في علوم القرآن***،ص ٢٢١.

٢٢) الخطيب الإسكافي، ***درّة التنزيل وغرة التأويل***، بيروت : دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٣، ص ٢٣٩.

٢٣) عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، ***الإعجاز البياني في القرآن***، ص ٢٤٢.

٢٤) الخطيب الإسكافي، ***درّة التنزيل وغرة التأويل***، ص ٢٩.

٢٥) المرجع السابق، ص ٣٣٢.